أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ(*)

الحَمْدُ للَّهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا رسولِ اللَّهِ، وعلَى آلِه وصَحبِه ومَن اهتدَى بهُداه.

وبعد:

فإنَّ المُتأمِّلَ في مناهِجِ الأزهَرِ التَّعليميَّةِ وفي عُلومِه التي تَفَجَّرَت يَنابيعُها مِن عُقولِ عُلمائِه وأساتِذَتِه، وعلى مَدَى تاريخِه الذي تجاوَزَ أَلفَ عامٍ -لا يُعييه أن يُبصِرَ الهَدَفَ البَعيدَ وراءَ طبيعةِ هذه المناهِجِ، وتصنيفِ هذه العُلومِ، وأَعنِي بهذا الهَدَفِ: الحِفاظَ على وَحْدَةِ الأُمَّةِ، وتَوفيرَ التَّأسيساتِ العلميَّةِ والتَّربويَّةِ والثَّقافيَّةِ التي تُحافِظُ على وَحْدَةِ المُسلمِينَ، وتُحَذِّرُ مِن تَنازُعِهم الذي يَعُدُّه القُرآنُ الكريمُ السَّببَ الأَوَّلَ في الفَشَلِ والضَّعفِ والتَّراجُعِ..

وما يقومُ به الأزهَرُ اليومَ مِن نَشاطٍ في الدَّاخِلِ والخارِجِ هو امتدادٌ لرِسالَتِه القَديمَةِ المتجَدِّدَةِ، مِن أَجْلِ إطفاءِ الحَرائقِ، وفَضْحِ مخطَّطاتِ الحُروبِ اللَّاإنسانيَّةِ، الَّتي تتَّخِذُ مِن أجسادِ العَرَبِ والمُسلمينَ وأشلائِهِم فِئرانَ تجارِبَ دمويَّةٍ، وهذه الحروبُ التي تُشعِلُها أنظمةٌ استعماريَّةٌ جديدةٌ، تُقدِّمُ بينَ يدَي نيرانِها نظرياتٍ شيطانيَّةً مُرعبةً، مِن أمثالِ: حَتميَّةِ الصِّراعِ الحضاريِّ، ونهايةِ التاريخِ، والفوضَى التي لا تَخْلُقُ إلَّا فوضَى مثلَها أو أشدَّ

(*) أصلُ هذا البحث محاضرةٌ أُلْقيَت في افتتاحِ مؤتمَرٍ عن أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ بالعاصِمةِ الشِّيشانيَّةِ جروزني بتاريخِ: ٢٣ من ذي القعدةِ سنةَ ١٤٣٧هـ، الموافقُ ٢٦ مِن أُغسطُسَ سنةَ ٢٠١٦م.

مِنها، والعَولَمةِ التي تعنِي فيما تعنِي: «سيطرةَ دولةٍ واحدةٍ عسكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا علَى السُّوقِ العالميِّ»[(١)].

وليتَ الأمرَ توقَّفَ في هذه الخُطَطِ الماكِرَةِ عندَ التَّغوُّلِ العسكريِّ والاقتصاديِّ، إذَن لصبَرنا ورَدَّدنا مع طَرَفَةَ بنِ العَبْدِ[(٢)] قولَه[(٣)]، وهو يناشِدُ الحارِثَ بنَ عُبَادٍ[(٤)]:

أبا مُنْذِرٍ أفْنَيْتَ فاسْتَبْقِ بَعْضَنَا حَنَانَيْكَ، بَعْضُ الشَّرِّ أهْوَنُ مِن بَعْضِ

لكنَّ الأمرَ لم يقِفْ -عندَ هذا الحَدِّ؛ وإنَّما ذَهَبَ إلَى أبعَدِ مدًى مُمكِنٍ في العبَثِ بالإنسانِ وبمكتسباتِه الحضاريَّةِ والرُّوحيَّةِ، حينَ بدَأَ العدوانُ السَّافِرُ الصَّريحُ يَزْحَفُ علَى ثقافاتِ الناسِ ومُعتقَداتِهم ومقدَّراتِهم التاريخيَّةِ والحضاريَّةِ، ويُخْضِعُهَا لمعاييرِ ثقافةٍ استعماريَّةٍ واحدةٍ مُستبِدَّةٍ..

وفي سبيلِ ذلك، اتَّخذَتِ العولَمةُ خطُواتٍ تُنذرُ بخطرٍ مُحدِقٍ علَى العالَمِ الشَّرقيِّ، بوضعِ العَوائقِ والعَقَباتِ علَى طريقِ تقدُّمِه، وإحكامِ السَّيطرَةِ علَى مفاصِلِ دُوَلِه وأوطانِه؛ مِن خلالِ مُنظَّماتٍ عالميَّةٍ، وبُنوكٍ دوليَّةٍ، وقروضٍ مُجحِفَةٍ، ومؤتمراتٍ للمُناخِ والسُّكَّانِ والمرأةِ والطِّفلِ، ودَعوةٍ صريحَةٍ مكشوفَةٍ إلى الشُّذوذِ الجِنسيِّ والمِثليِّ، وما ينتجُ عنها مِن أمراضٍ وعاهاتٍ خُلُقِيَّةٍ، وحُريَّاتٍ فوضويَّةٍ عبثيَّةٍ، يُنفَقُ علَى تسويقِها وترويجِها ما لا يُنفَقُ عُشْرُ مِعشارِهِ على الأكبادِ الجائعةِ مِن فُقراءِ هذه الدُّوَلِ، وعلَى شُعوبِها لتمكِينِها مِن الحُصولِ علَى أدنَى «الحقوقِ الإنسانيَّةِ» في التَّعلِيمِ والصحَّةِ

(١) «في الحَداثةِ والخِطابِ الحَداثيِّ» لمُنير شفيق: ٧٤.

(٢) هو أبو عَمرٍو الوائليُّ (ت. ٦٠ ق. هـ) شاعرٌ جاهليٌّ مِنَ الطَّبقةِ الأولى. انظر ترجمته في: «طبقات فحول الشعراء» لابن سلَّام: ١/ ٤٠، و«الأعلام» للزِّركلِي: ٣/ ٢٢٥.

(٣) «ديوانُ طرَفَةَ بنِ العبدِ»: ٦١.

(٤) هو أبو مُنذرٍ البَكريُّ (ت. نحو ٥٠ ق. هـ) حكيمٌ جاهليٌّ كان شُجاعًا شاعِرًا.

والغِذَاءِ، ومُكافحةِ الأمراضِ، والقضاءِ علَى الجهلِ والأُميَّةِ والتَّخلُّفِ.

وقد أضافَتِ العَولمةُ -حديثًا- نظريَّةَ: «المركزِ والأطرافِ» إلى نظرياتِ: «صراعِ الحضاراتِ»، و«نهايةِ التَّاريخِ»، و«الفوضَى الخلَّاقةِ»، وكلُّها نظرياتٌ تَعمَلُ في خِدمةِ الاستعمارِ الجديدِ، وتُزيِّنُه في أَعيُنِ المُستعمِرينَ الجُدُدِ، وتُذكِّرنا بالنَّظريَّاتِ التي كانت تَسعَى بينَ يَدَي الاستعمارِ في القَرنينِ الماضيينِ، والتي قدَّمَها مستشرِقو المستعمَراتِ آنذاك عُربونًا لاستيلاءِ الغربِ علَى مُقدَّرَاتِ العالَمِ الإسلاميِّ، وثرَواتِه الظَّاهرةِ والباطنةِ.

وقد يَسألُ البعضُ عن عَلاقَةِ محاضرتي هذه عنِ «أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ» بالوَضعِ المُحزِنِ الذي صارَت إليه أمَّةٌ عريقةٌ كأُمَّتِنا، طالَما علَّمَتِ الدُّنيا، وملَأت رُبُوعَ العالَمِ شرقًا وغربًا، نورًا ويَقينًا بَدَّدَت بهما جهالاتِ الشُّعوبِ وضَلالاتِها، وأيقَظَتها مِن غفلَةِ الجهلِ والتَّخلُّفِ، وكانَ العالَمُ كلُّه يَحْسبُ لها ألفَ حِسابٍ وحسابٍ، ثمَّ صارَت إلى ما صارَت إليه مِن ضَعفٍ وتَمزُّقٍ، وفُرقةٍ واختلافٍ، وفِتَنٍ كقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ تدَعُ الحليمَ حيرانَ.

والإجابةُ علَى هذا التَّساؤُلِ: هي أنَّ بحثَنا اليومَ في تحريرِ مفهومِ: «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» وتحديدِه هو في الوقتِ نفسِه بحثٌ عن شخصيَّةِ الأُمَّةِ وهُويَّتِها، وفلسفَتِها في عَلاقاتِها مع الآخَرِ، ودَورِها في صُنعِ السَّلامِ الإقليميِّ والعالميِّ؛ ثم هو بحثٌ في تشخيصِ المرضِ الذي أضعَفَ جَسَدَها، وأنهَكَ قواها، وأهدَرَ طاقاتِها ومقدَّراتِها، وألَحَّ عليها نزفًا وهزالًا، وما زالَت بها حتى أصبح بأسُها شديدًا بينَ أبنائِها..

وهو أيضًا بحثٌ في الدَّواءِ والعلاجِ، وما أيسرَه لو خَلَصَتِ النَّوايا، وبخاصَّةٍ: نوايا العلماءِ -قبلَ الأُمراءِ- لوَجهِ رسالَتِهم، وأمانَتِهم التي أمَرَ اللَّهُ بأدائِها على وَجهِها.

وقد مثَّل هذا مفهومُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ قاعدةً ثابتةً بعثَت على التَّألُّقِ العِلميِّ والحضاريِّ لهذه الأُمَّةِ وألهَمَت عُلماءَها وأئمَّتَها، في كلِّ ما يَصْدُرُ عنهم مِن أنظارٍ في العقيدةِ، وفتاوى في الفِقهِ والتَّشريعِ، وإبداعاتٍ في مجالِ الفُنونِ، وإشراقاتٍ في مجالِ الآدابِ، وكانَت مِنَ الحُضورِ المستمِرِّ والتَّمكُّنِ العميقِ في شُعورِ الأُمَّةِ ووُجدانِها بحيثُ استطاعَت أن تحمِيَها بسياجٍ مَنيعٍ مِن أخطارِ التَّشرذُمِ والتَّشتُّتِ والشِّقاقِ، وأن تكونَ لها رِدْءًا تدفَعُ به عَوادِيَ الاختراقِ والاستلابِ، ويُذَكِّرُهم صباحَ مساءَ بقولِه تعالَى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وبقولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ومِن المُؤلِمِ أشدَّ الأَلَمِ أنَّ هذا المفهومَ الذي كانَ يدورُ عليه أمرُ هذه الأُمَّةِ قُرونًا مُتطاولةً - نازَعَته في الآونةِ الأخيرةِ دعاوَى وأهواءٌ، مزَّقته وعبثَت بحرمتِه أشدَّ العبثِ، بعد أن خرَجَت علَى أُصولِه وقواعدِه، وألصَقَت به -ممَّا هو غريبٌ عنه- ما جعَلَ منه مَفهومًا مُلتبِسًا في أذهانِ العامَّةِ مِنَ المُسلمِينَ، ومُضطربًا، بل شديدَ الاضطرابِ عندَ كثيرٍ ممَّن يتصدَّرون للدَّعوةِ والإرشادِ بينَ الناسِ، ولا يكادُ يَبِينُ لهم بعضٌ مِن معالِمِ هذا المفهومِ حتى تَنْبَهِمَ عليهم قوادِمُه وخَوَافِيهِ، وحتى يُصبِحَ نَهْبًا تتخطَّفُه دعواتٌ ونِحَلٌ وأهواءٌ، كلُّها ترفَعُ لافتةَ مذهبِ «أهلِ السُّنَّة والجماعةِ»، وتزعُمُ أنَّها وحدَها المُتحدِّثُ الرَّسميُّ باسمِه، حتَّى تمزَّقَ هذا المَفهومُ الذي كانَت تدورُ عليه وَحْدَةُ المسلمِينَ على مدَى تاريخِهم، وأصبحَ -منذ قرنَيْنِ أو أكثرَ- عامِلَ هَدمٍ وتَقويضٍ وتَشَتُّتٍ وفُرْقَةٍ بينَ أَبناءِ الأُمَّةِ الواحِدَةِ. .

وأَمْرٌ بَدَهيٌّ أن يَتصادَمَ النَّاسُ حينَ تتَصادَمُ تفسيراتُ هذا المَفهومِ، وأنْ تَفتَحَ التَّفسيراتُ المتصادِمةُ أَبوابَ النِّزاعِ على مصاريعِها ليَجِدَ التَّشَدُّدُ والتَّطَرُّفُ والإرْهابُ وجَرائِمُ القَتلِ وسَفْكِ الدِّماءِ وهَتْكِ الأعراضِ واغتصابِ الحَرائرِ- سَنَدًا له مِن هذه التَّفسيراتِ التي تَدَّعِي وَصْلًا بأهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، كذِبًا علَى النَّاسِ، وجَهلًا فاضِحًا بما ترَكَه عُلماؤُنا عَبْرَ القُرونِ مِن معالِمَ بيِّنةٍ واضحةٍ، ومفاهيمَ تنضبطُ طَرْدًا وعكسًا في تعريفِ مَنْ هُم أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ؟.

وقد كانَ مِن أَمْرِ الاضطرابِ في هذا المَفهومِ في دوائرِ التَّعليمِ والتَّعَلُّمِ، والدَّعوَةِ والدُّعاةِ والمُؤتَمَراتِ والنَّدَواتِ في الأقطارِ الإسلاميَّةِ ما أطمَعَ المُتربِّصين من غيرِ المُسلمِينَ، بل مِن بَنِي جِلْدَتِنا بتصويبِ سِهامِهم نحوَ هذا المفهومِ وتشويهِ سيرتِه، والافتراءِ علَيه بأنَّه المسؤولُ عنِ الجرائمِ الإرهابيَّةِ التي تقترِفُها الجماعاتُ التَّكفيريَّةُ المُسلَّحةُ، وفي سَعيٍ خَبيثٍ لشَيطَنَةِ أهْلِ السُّنَّةِ وإزاحَتِهم، طَمَعًا في الاستيلاءِ على مُقَدَّراتِهم وإخضاعِهِم لمَذاهِبَ أُخْرَى دَرَجَت عَلَى إقصاءِ مَن لا يُؤمِنُ بِها والحُكمِ بكُفرِه، والتَّخطِيطِ لإبادَتِه واحتلالِ أراضِيه..

وهؤلاء المُفتَرون هم أوَّلُ مَن يعلَمُ أنَّ هذه الجماعاتِ التَّكفيريَّةَ، بتصرُّفاتِها البشعَةِ المُنكَرَةِ لا تمُتُّ إلى «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» بأدنَى سبَبٍ.. وأغلَبُ الظَّنِّ -أيضًا- أنَّ هذه الفِئةَ قدِ اتَّخَذَت مِن هُجومِها علَى مَفهوم «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» غطاءً لتحقيقِ أغراضٍ سياسيَّةٍ وأحلامٍ توسُّعيَّةٍ، تعتمِدُ في تحقيقِها على إثارةِ نَوازعِ الفُرقةِ بينَ المسلمين، ونَشرِ ثَقافَةِ الحِقدِ والكراهيَةِ، وبعثِ فِتَنٍ طواها الزَّمَنُ وأصبَحَت في ذِمَّةِ التَّاريخِ، وتنكُّرٍ لتعاليمِ الإسلامِ في التَّعايُشِ السِّلميِّ، والكَفِّ عن التَّدَخُّلِ في شؤونِ

الشُّعوبِ والأقطارِ، ومُراعاةِ حُرمةِ الجارِ التي كادَت تبلُغُ في شريعةِ الإسلامِ حُرمةَ أُخوَّةِ الدَّمِ والجَسدِ، كما كادَت تَبلُغُ مَبلَغَ مشروعيَّةِ التَّوارُثِ.

وما أشبَه اللَّيلةَ بالبارِحةِ في احتياجِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ الآنَ لِأَن تَعرِفَ مِن جديدٍ: مَنْ هُم أهلُ السُّنَّةِ والجماعة؟ وما هي مَعالمُ مَذهبِهم؟ وهل لغيابِ هذا المَذهبِ الآنَ تأثيرٌ في حياةِ المسلمينَ؟ وما هي العِلَّةُ الحَقِيقيَّةُ في تشرذُمِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ؟ وهل مِن سبيلٍ إلى إحياءِ هذا المذهبِ ليكونَ طَوقَ النَّجاةِ الأخيرِ لهذه الأُمَّةِ، تتماسَكُ مِن حولِه في مِحَنِها المُتتابعةِ، وتفوِّتُ على المُتربِّصينَ بها ما يُبيِّتونَه لها بليلٍ؟ . . . إلى آخِرِ هذه الأسئلةِ، التي تجِدونَ الجوابَ عنها في المناهجِ العقَديَّةِ بمُختلِفِ مَراحلِ التَّعليمِ الأزهريِّ في المعاهدِ والكُلِّيَّاتِ علَى السَّواءِ.

أمَّا إجابتِي علَى سؤالِ: مَن هم أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ؟ فإنِّي أستَدعيها مِن مَنْهَجِ التَّعليمِ بالأزهرِ، الذي تربَّيتُ علَيه، ورافَقَني مُنذُ طُفولَتِي وحتى يومِنا هذا، دارِسًا لمتونِ هذا المَنهجِ وشُروحِه، عبرَ رُبعِ قَرنٍ مِنَ الزَّمانِ، ومُتأمِّلًا في مَنهجِه الحِوَارِيِّ بينَ المَتنِ والشَّرحِ والحاشيةِ والتَّقريرِ، في تدريسِي لعلومِ أصولِ الدِّينِ، قُرابةَ أربعين عامًا مِن الزَّمانِ. .

وقد تعلَّمْتُ مِن شُيوخِنا في المَرحَلَةِ الابتدائيَّةِ وهم يُدَرِّسون لنا «شرحَ الخَريدةِ» لأبي البرَكَاتِ أحمدَ الدَّرديرِ المالكيِّ (ت. ١١٢٧هـ) أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ هم: الأشاعرةُ والماتُريديَّةُ، تَمييزًا لهم عنِ الفِرَقِ الإسلاميَّةِ الأُخرَى وفي مُقَدِّمَتِهم: فِرَقَةُ المُعتَزِلَةِ.

ثمَّ تعلَّمتُ في المرحلةِ الثَّانويَّةِ أنَّ أهلَ الحقِّ هم «أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ»، وأنَّ هذا المُصطلَحَ إنَّما يُطلَقُ على أتباعِ إمامِ أهلِ السُّنَّةِ أبي الحسنِ الأشعريِّ (ت. ٣٢٤هـ)، وأتباعِ إمامِ الهُدَى أبي منصورٍ الماتُريديِّ (ت. ٣٣٣هـ).

تَعَلَّمنا ذلك مِن كِتابِ «**عُمدَة المُريدِ شَرح جَوْهَرَةِ التَّوحيدِ**»، وهو شَرحٌ للإمامِ بُرهانِ الدِّينِ اللَّقَانيِّ (ت ١٠٤١هـ) عَلَى مَنظُومَتِه المُسَمَّاةِ بـ«**جَوهَرَةِ التَّوحيدِ**»، وقد دَرَسْنا هذا الشَّرحَ في السَّنَتَيْنِ: الرَّابِعَةِ والخامِسَةِ في القِسمِ الثَّانويِّ (١٩٦٤، ١٩٦٥م)، ورَسَخَ في عُقولِنا ما حَكاه الشَّارِحُ عن الإمامِ أبي الحسنِ الأَشعريِّ مِن أنَّه بَعدَما نَزَعَ مِن عقلِه وفكرِه مَذهَبَ المُعتَزِلَةِ الذي دَرَجَ عليه، أَعلَنَ للنَّاسِ مَذْهَبَه، قائلًا: «مَن أرادَ الحَقَّ فقد دَوَّنْتُ أُصولَه في هذه الأَوراقِ»، وأنَّه أَثبَتَ في مَذهَبِه «ما وَرَدَت به السُّنَّةُ ومَضَى عليه الجَماعَةُ فعُرِفُوا بالأَشاعِرَةِ، وسُمُّوا بأَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، واشتُهِروا بهذا الاسمِ في أكثرِ الأَمصارِ، وأمَّا دِيارُ ما وراءَ النَّهرِ فالمَشهورُ فيها بهذا الاسمِ هو أبو منصورٍ الماتُريديُّ، وأتباعُه المَعروفون بالماتُريديَّةِ، وكِلَا الفَريقَينِ على هُدًى ونُورٍ»[1].

وفي كلِّيَّةِ أُصولِ الدِّينِ كانَ أوَّلَ ما صافَحَ عُقولَنا في مادَّةِ التَّوحيدِ هي عبارةُ الإمامِ النَّسَفيِّ في «**عقائدِه**»، وهي العبارةُ التي يَحفَظُها -عن ظهرِ قلبٍ- كلُّ طالبٍ تخرَّجَ في هذه الكُلِّيَّةِ، وهذه العبارةُ هي: «قالَ أهلُ الحَقِّ: حقائقُ الأشياءِ ثابتَةٌ، والعِلمُ بها مُتحقِّقٌ خِلافًا للسوفسطائيَّةِ»[2]، وقد علَّقَ الشُّرَّاحُ وأصحابُ الحواشِي علَى هذه العبارةِ مُوضِّحينَ أنَّ أهلَ الحَقِّ هُم «أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ».

ثمَّ تعلَّمنَا بعدَ ذلك في أبحاثِنا بالدِّراسَاتِ العُليَا أنَّ «أهلَ السُّنَّةِ والجَمَاعةِ» هُم الأشاعرةُ والماتُريديَّةُ، وأهلُ الحديثِ، وأنَّ فُقَهَاءَ الحنفيَّةِ

(١) «عمدة المريد، شرح جوهرة التوحيد» للإمام إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللَّقَانيِّ: ١/ ١٣٠، ١٣١.

(٢) انظر: «حواشي العقائد النَّسَفية»: ١/ ٢٤.

والمالكيَّةِ والشافعيَّةِ والحنابلَةِ لم يَخرُجوا مِن عَباءةِ هذا المذهبِ، كما يقولُ سلطانُ العُلماءِ عزُّ الدِّينِ بنُ عبدِ السَّلام (ت. ٦٦٠هـ)[١].

هذا المفهومُ -بهذا العُمومِ الذي يَشمَلُ كُلَّ أئمَّةِ المُسلمِينَ والأَغلَبيَّةَ الغالِبَةَ مِنَ المُتكلِّمينَ والفُقهاءِ والمُحدِّثين وأهلِ التَّصوُّفِ والإرشادِ، وأهلِ النَّحوِ واللُّغةِ والأدبِ- أَكَّدَهُ قُدماءُ الأشاعرةِ أنفسُهم مُنذُ البواكيرِ الأولَى لظُهورِ هذا المُصطلَحِ بعدَ وفاةِ الإمامِ أبي الحسنِ عليِّ بنِ إسماعيلَ الأشعريِّ، وشَهِدَ عليه جمهرَةُ القُدماءِ والمُحْدَثِينَ مِن عُلماءِ الإسلامِ ومُفَكِّريه..

شَهِدَ عليه الإمامُ أبو الحسينِ المَلطيُّ (ت. ٣٧٧هـ)[٢] من قدماءِ الأشاعرةِ، والإمامُ الكبيرُ حُجَّةُ المُتكلِّمِينَ أبو منصورٍ عبدُ القاهرِ بنُ طاهرٍ البغداديُّ (ت. ٤٢٩هـ) في كتابَيْه: «**الفَرْقِ بينَ الفِرَقِ**»[٣]، و«**أصولِ الدِّينِ**»[٤]، وكذا

(١) كما في «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي: ٣/ ٣٦٥. وانظر: «المُلْحَة في اعتقاد أهل الحق»: ١٦.

(٢) انظُر كلامَ أبي الحُسينِ محمدِ بنِ أحمدَ المَلطيِّ (ت. ٣٧٧هـ)، في كتابِه: «التنبيهِ والرَّدِّ علَى أهلِ الأهواءِ والبِدَعِ»: ١٢، ١٤.

(٣) يَذكُرُ في الفَصلِ الذي خَصَّصَه لبَيانِ أصنافِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ أنَّ أئمَّةَ الفِقهِ مِن مَدرَسَتَي الرَّأيِ والحَديثِ، والذين اعتقَدُوا مَذاهِبَ الصِّفاتِيَّةِ، وتَبَرَّءُوا مِنَ القَولِ بالقَدَرِ والاعتِزالِ هُم مِن أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، وكذلك أصحابُ مالِكٍ والشَّافعيِّ والأوزاعيِّ والثَّورِيِّ وأبي حَنيفةَ وأصحابُ أحمدَ سبنِ حَنبلٍ وأَهْلُ الظَّاهِرِ، وكذلك أَهْلُ الحَديثِ الذين لم يخلطُوا عِلْمَهم بالبِدَعِ والأَهواءِ. بل عُلَماءُ اللُّغَةِ والأَدَبِ كالخَليلِ وسِيبَوَيْهِ والفَرَّاءِ وغَيرِهم، وعُلماءُ القِراءاتِ، والزُّهَّادُ والصُّوفيَّةُ، كُلُّ هؤلاء -عندَ هذا الإمامِ الكبيرِ- يُطلَقُ عليهم مصطلحُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ إطلاقًا متساويًا. انظر: «الفَرْق بينَ الفِرَقِ»، لعبدِ القاهِرِ البَغداديِّ: ١٨٩، ١٩٠. والشَّيءُ نَفْسُه يَذكُرُه في كِتابِه «أُصولِ الدِّين»: ٢١١، ٢١٢، الطبعة الأولى، إستانبول، ١٣٤٦-١٩٢٨.

(٤) انظُر صفحة: ٣١١، ٣١٥.

عندَ الأستاذِ أبي المُظفَّرِ شاهفُورِ بنِ طاهرٍ الإسفراييني (ت. ٤٧١هـ) في كتابِه: «**التَّبصِيرِ في الدِّينِ وتمييزِ الفِرقةِ النَّاجيةِ عنِ الفِرَقِ الهالكينَ**»[١].

وهذا المصطلحُ بمعناه الواسعِ الأعمِّ هو ما استقرَّ عليه الأمرُ بعدَ ذلك في اطِّرادٍ عَجيبٍ، لا يخلُو جيلٌ مِنَ الأجيالِ مِنَ التَّذكيرِ به والتَّنبيهِ إليه، منذ عهدِ الإمامِ الأَشعريِّ وحتَّى يومِ النَّاسِ هذا:

فالإمامُ البيهقيُّ[٢] (ت. ٤٥٨هـ) المعاصِرُ للإسفراييني، بعدَ أنْ يذكُرَ طَرَفًا مِن فَضلِ الصحابيِّ الجليل: أبي موسَى الأشعريِّ ﵁، يقولُ: «. . . ورُزِق مِنَ الأولادِ والأحفادِ، مع الدِّرايَةِ والرِّوايَةِ والرِّعايةِ ما يكثُرُ نَشْرُه، وأساميهم في التواريخِ مُثبَتةٌ، ومعرِفَتُهم عندَ أهلِ العِلمِ بالرِّوايَةِ مشهورةٌ، إلى أن بَلَغَتِ النَّوبَةُ إلى شَيخِنا أبي الحَسَنِ الأشعريِّ فلم يُحدِث في دِينِ اللَّهِ حَدَثًا، ولم يأتِ فيه ببدعَةٍ، بل أخَذَ أقاويلَ الصَّحابَةِ والتَّابعِين ومَن بعدَهم مِنَ الأئمَّةِ في أُصولِ الدِّينِ فنَصَرَها بزيادَةِ شَرحٍ وتَبيينٍ».

وقالَ الإمامُ أبو القاسِمِ القُشَيريُّ[٣] (ت. ٤٦٥هـ): «اتَّفَقَ أصحابُ الحَديثِ أنَّ أبا الحَسَنِ عَلِيَّ بنَ إسماعيلَ الأشعريَّ ﵁ كان إمامًا مِن أئمةِ أصحابِ الحَديثِ، ومذهبُه مذهَبُ أصحابِ الحَديثِ، تكلَّمَ في أُصولِ الدِّياناتِ على طَريقَةِ أهلِ السُّنَّةِ، ورَدَّ على المُخالِفِينَ مِن أهلِ الزَّيغِ والبِدعَةِ. . .».

وكتَبَ أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ عليٍّ الشِّيرازِيُّ (ت. ٤٧٦هـ) وأبو بكرٍ محمَّدُ بنُ أحمدَ الشَّاشيُّ (ت. ٥٠٧هـ)[٤]: «أنَّ الأشعريَّةَ أعيانُ السُّنَّةِ،

---

(١) انظُر صفحة: ١١٣، ط: السيد عِزَّت العَطَّار، سنة: (١٩٤٠م)، تقديم الأستاذ الشيخ: محمد زاهد الكوثري.

(٢) كما في «تبيين كذب المفتري»: ١٠٣.

(٣) كما في «تبيين كذب المفتري»: ١١٣.

(٤) المصدر نفسه: ٣٣٢.

ونُصَّارُ الشَّريعَةِ، انتصَبوا للرَّدِّ على المُبتدِعَةِ مِنَ القَدَريَّةِ والرَّافِضَةِ وغيرِهم، فمَن طَعَنَ فيهم فقد طَعَنَ على أهلِ السُّنَّةِ».

ويؤكِّدُ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ (ت. ٥٤٣هـ) على مكانَةِ الإمامِ أبي الحسنِ الأشعريِّ في الذَّبِّ عن الدِّينِ وحِياضِه، فيقولُ في «**العواصم مِنَ القواصِم**»[(١)]: «لم يتعَرَّضْ لحِمايَةِ الدِّينِ إلا آحادٌ اختارَهُمُ اللَّهُ له، ونَصَّبَهم للذَّبِّ عنه، فأوَّلُهم أبو الحسنِ الأشعريُّ...».

بل يذهَبُ بعيدًا، فيُؤكِّدُ على ضَرورَةِ الاقتصارِ على كُتُبِ الأشاعِرةِ، فيقولُ[(٢)]: «الذي أراه لكم على الإطلاقِ، أنْ تَقْتَصِرُوا على كُتُبِ عُلمائِنا الأشعريَّةِ، وعلى العِباراتِ الإسلاميَّةِ، والأدِلَّةِ القرآنيَّةِ».

ويُعرِّفُ به شَمسُ الدِّينِ ابنُ خَلِّكان (ت. ٦٨١هـ) باختصارٍ، فيقولُ[(٣)]: «هو صاحِبُ الأُصولِ، والقائِمُ بنُصرَةِ مذهَبِ السُّنَّةِ».

ويُتَرجِمُ له شِهابُ الدِّينِ اللَّبْلِيُّ (ت. ٦٩١هـ) في «**فِهرَسَتِه**»[(٤)]، فيقولُ: «هو صاحِبُ المَذهَبِ الذي اتَّخَذَه أهلُ الحديثِ والفِقهِ مِنْ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ إمامًا، حتَّى نُسِبَ مَذهبُهم إليه، فَنُسِبَ مَن تعَلَّق لمَذهَبِ أهلِ السُّنَّةِ، وتَفَقَّه في معرفةِ أُصولِ الدِّينِ من بَيْنِ سائرِ المَذاهِبِ - إلى الأشعريِّ؛ لحُسنِ تصانيفِه، وصِحَّةِ مَذهبِه واعتقادِه... ولم يكُنْ أَوَّلَ مُتكلِّمٍ بلِسانِ أهلِ السُّنَّةِ، إنَّما جَرَى على سَنَنِ غيرِه، وعلى نُصرَةِ مَذهبٍ معروفٍ، فزادَ المَذهَبَ حُجَّةً وبيانًا، ولم يَبتَدِعْ مقالةً اخترعَها، ولا مَذهبًا انفرَدَ به».

(١) صفحة: ٧١.
(٢) المصدر نفسه: ٨٠.
(٣) في «وَفَيَاتِ الأعيانِ وأنْباءِ أبناءِ الزَّمانِ»: ٣/ ٢٨٤.
(٤) صفحة: ٧٤، ٧٥.

وقال العَضُدُ الإيجِي[1] (ت. ٧٥٦هـ): «أمَّا الفِرقَةُ النَّاجيَةُ المُستَثناةُ الذين قالَ فيهم [رسولُ اللَّه ﷺ][2]: «هم الذين عَلَى ما أنا عليه وأصحابِي» فهُمُ الأشاعِرَةُ، والسَّلَفُ مِنَ المُحدِّثِينَ، وأهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ».

وقال تاجُ الدِّينِ السُّبكيُّ (ت. ٧٧١هـ) في «**شَرح عقيدةِ ابنِ الحاجِبِ**»[3]: «اعْلَمْ أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ كُلَّهم قَدِ اتَّفقوا على مُعتقَدٍ واحِدٍ فيما يجِبُ ويجوزُ ويستحيلُ... وبالجُملَةِ فهُم بالاستقراءِ ثلاثُ طوائفَ:

الأُولَى: أهلُ الحديثِ، ومعتمَدُ مبادئِهم الأَدِلَّةُ السَّمعيَّةُ، أعني الكِتابَ والسُّنَّةَ والإجماعَ.

الثَّانيةُ: أهلُ النَّظَرِ العقليِّ والصِّناعَةِ الفكريَّةِ، وهُمُ الأشعريَّةُ والحنفيَّةُ، وشيخُ الأشعريَّةِ أبو الحسنِ الأشعريُّ، وشيخُ الحنفيَّةِ أبو منصور الماتريديُّ...

الثَّالثةُ: أهلُ الوجدانِ والكَشفِ، وهُمُ الصُّوفيَّةُ، ومبادِئُهم مبادِئُ أهلِ النَّظَرِ والحَديثِ في البدايةِ، والكَشفِ والإلهامِ في النِّهايَةِ».

وقالَ السَّعدُ التَّفتازانيُّ[4] (ت. ٧٩١هـ): «المَشهورُ مِن أهلِ السُّنَّةِ في دِيارِ خُراسانَ والعِراقِ والشَّامِ وأكثرِ الأقطارِ هم: الأشاعِرَةُ، أصحابُ أبي الحسنِ عليِّ بنِ إسماعيلَ بنِ إسحاقَ بنِ سالِمِ بنِ إسماعيلَ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ

(١) في «المواقف» راجع «شرح المواقف»: ٣/ ٧١٧.

(٢) في الحديث الذي أخرَجه التِّرمذيُّ في (٢٦٤١) والطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير» (١٣/ ٣٠/ ٦٢) والحاكمُ (١/ ١٢٨) وغيرُهم؛ من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو ، بنحوه. وقال التِّرمذيُّ: «هذا حديثٌ مفسَّرٌ غريبٌ، لا نعرِفُه مثلَ هذا إلَّا من هذا الوجهِ».

ولهذا اللَّفظِ عدَّةُ شواهدَ، منها حديثُ أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ، وقد أخرَجه الطَّبرانيُّ في «المعجمِ الصَّغيرِ» (٧٢٤) وفي «المعجمِ الأوسطِ» (٤٨٨٦، ٧٨٤٠).

(٣) كما في «إتحاف السَّادة المتقين» للزبيدي: ٢/ ٥، ٦.

(٤) في «شرح المقاصد»: ٢/ ٢٧١.

بِلالِ بنِ أبي بُرْدَةَ بنِ أبي مُوسَى الأشعريِّ، صاحِبِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، أَوَّلِ مَن خالَفَ أبا عليٍّ الجُبَّائيَّ، ورَجَعَ عن مَذهَبِه إلى السُّنَّةِ، أي طريقَةِ النَّبيِّ ﷺ، والجَماعَةِ أي طريقَةِ الصَّحابَةِ.

وفي دِيارِ ما وراءَ النَّهرِ: الماتريديَّةُ، أصحابُ أبي منصورٍ الماتريديِّ تلميذِ أبي نَصرٍ العَيَّاضِ، تلميذِ أبي بكرٍ الجُرجانيِّ، صاحبِ أبي سُليمانَ الجُرجانيِّ، تلميذِ محمَّدِ بنِ الحسنِ الشَّيبانيِّ رحمه اللَّه».

ويَذهَبُ العلَّامةُ الكَسْتَلِّيُّ (ت. ٩٠١هـ) في «**حاشية شَرحِ العَقائدِ**»[١] إلى إقرارِ نَفْسِ المَذهَبِ.

ويقولُ ابنُ كمال باشا[٢] (ت. ٩٤٠هـ): «اعلم أنَّ الشَّيخَ أبا الحسنِ الأشعريَّ إمامُ أهلِ السُّنَّةِ ومُقدَّمُهم، ثُمَّ الشَّيخَ أبا منصورٍ الماتريديَّ، وأنَّ أصحابَ الشَّافعيِّ وأتباعَه تابعون له في الأُصولِ، وللشَّافعيِّ في الفُروعِ، وأنَّ أصحابَ أبي حنيفَةَ تابِعون للشَّيخِ أبي منصورٍ الماتريديِّ في الأُصولِ، ولأبي حنيفَةَ في الفُروعِ».

وقالَ طاش كُبرَي زاده[٣] (ت. ٩٦٨هـ): «اعْلَمْ أنَّ رئيسَ «أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» في عِلمِ الكَلامِ رَجُلانِ، أَحَدُهما حنفيٌّ، والآخَرُ شافعيٌّ، أمَّا الحنفيُّ فهو أبو منصورٍ محمَّدُ بنُ محمودٍ الماتريديُّ إمامُ الهُدَى... وأمَّا الآخَرُ الشَّافعيُّ فهو شَيخُ السُّنَّةِ، ورئيسُ الجَماعَةِ، إمامُ المُتَكلِّمينَ، وناصِرُ سُنَّةِ سيِّدِ المُرسلِينَ، والذَّابُّ عن الدِّينِ، والسَّاعي في حِفظِ عقائدِ المُسلمِينَ أبو الحسنِ الأشعريُّ البَصريُّ...».

---

(١) صفحة: ١٧.

(٢) في «مسائل الاختلافِ بين الأشاعرَةِ والماتريديَّة»: ١١.

(٣) في «مفتاح السَّعادَة»: ٢/ ٣٣.

وقالَ ابنُ حَجَرٍ الهَيتَمِيُّ[(١)] (ت. ٩٧٤هـ): «المُرادُ بأصحابِ البِدَعِ فيه مَن كانَ عَلَى خِلافِ ما عليه «أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ»، والمُرادُ بهم أتباعُ الشَّيخِ أبي الحسنِ الأشعريِّ، وأبي منصورٍ الماتُريديِّ، إمامَيْ أهلِ السُّنَّةِ».

وقالَ أيضًا[(٢)]: «المُرادُ بالسُّنَّةِ ما عليه إمامَا أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ الشَّيخُ أبو الحسنِ الأشعريُّ وأبو منصورٍ الماتريديُّ، والبِدعَةِ ما عليه فِرقَةٌ مِن فِرَقِ المُبتدِعَةِ المُخالِفَةِ لاعتقادِ هذَينِ الإمامَينِ وجميعِ أتباعِهما».

ونقَلَ عنه عَلِيٌّ القاري (ت. ١١٤٠هـ)[(٣)] أنَّه قالَ: «الأهواءُ المُنكَرَةُ هي الاعتقاداتُ الفاسِدَةُ المخالِفَةُ لما عليه إمامَا «أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» أبو الحَسن الأشعريُّ، وأبو منصورٍ الماتريديُّ».

ولك -أيُّها القارِئُ الكريمُ- أنْ تتوَقَّفَ قليلًا أمامَ النَّصَّينِ السَّابقَينِ، لا لتعلَمَ فقط أنَّ الأشاعِرةَ والماتريديَّةَ هُم طلائعُ «أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ»، بل لتَعلَمَ -أيضًا- أنَّ مُخالِفي الأشاعِرَةِ والماتريديَّةِ هُم مَن يُسمَّوْنَ -في تُراثِنا- أهلَ البِدَعِ والأَهواءِ، ولك أنْ تَنظُرَ مِن حَولِكَ لتكتشِفَ أنَّ الميراثَ العلميَّ المُوَثَّقَ للمُسلمِينَ والذي استشهَدنا فيه بنُقولٍ تنصُّ صراحةً على أنَّ الأشاعِرةَ ومعهم الماتريديَّةُ هم أئمَّةُ «أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» وأنَّ مخالفيهم هم أهلُ البِدَعِ والأهواءِ.

هذا الميراثُ قَدِ انقَلَبَ في الآوِنَةِ الأَخيرَةِ رأسًا عَلَى عَقِبٍ، وصارَ يَمشي عَلَى رأسِه بدَلًا مِن قَدَمَيْه، وأصبحَ أهلُ البِدَعِ والتَّشَدُّدِ والتَّطَرُّفِ هُم «أهلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» الجُدُدَ، و«أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ» الذين عرفهم تاريخُ الإسلامِ والمسلمِين هم مَن يُرمَون اليومَ بالابتداعِ والفِسقِ والمُروقِ مِنَ المِلَّةِ عندَ كثيرٍ ممَّن لا قَدَمَ لهم في عِلمٍ عَقليٍّ أو نَقْليٍّ.

(١) في «الفتاوى الحديثيَّة»: ٦٥٤.

(٢) في «الزَّواجر عن اقترافِ الكبائرِ»: ١/ ١٦٥.

(٣) في: «مرقاة المفاتيح»: ٤/ ١٧١٢.

وقد مضَتِ القُرونُ العَشَرَةُ الأُولَى(١)، في طُولِ بلادِ الإسلامِ وعَرضِها عَلَى هذا النَّهجِ الواضِحِ في التَّفريقِ بينَ المَذهَبِ الأشعريِّ -الذي هو مَذهبُ الأغلبيَّةِ الساحِقَةِ للمُسلمينَ- وبينَ المَذاهِبِ الأُخرَى التي تَتْبَعُها قِلَّةٌ هنا أو طائفةٌ هناك، ليأتِيَ القَرنُ الحادي عَشَرَ -وما بعدَه- فيتواصَلَ السَّيرُ على ما رَضِيَتْهُ الأُمَّةُ واطمأنَّت إليه مِنَ التَّمَسُّكِ بهذا المَذهَبِ، والتَّنصيصِ الدَّائمِ على أنَّه المَذهبُ المُعبِّرُ عن سماحَةِ الإسلامِ وسعَةِ أُفُقِ المُسلمِينَ.

وهنا يُطالِعُنا إسماعيلُ حقي(٢) (ت. ١١٢٧هـ) بقَولِه: «اعْلَمْ أنَّ الشَّيخَينِ الكامِلَينِ مِن طائفةِ أهلِ الحَقِّ اسمُ أحَدِهما: الشَّيخُ أبو الحسنِ الأشعريُّ، مِن نَسلِ الصحابيِّ أبي موسَى الأشعريِّ رضي اللَّه عنه، ومَن ذَهَبَ إلى طريقِه واعتقَدَ موافِقًا لمَذهَبِه يُسَمُّونَه الأشعريَّةَ.

واسمُ الآخَرِ: الشَّيخُ أبو منصورٍ الماتريديُّ رحمه اللَّه، وكُلُّ مَنِ اعتقَد موافِقًا لمَذهَبِ هذا الشَّيخِ يُسَمُّونَه الماتريديَّةَ.

ومَذهبُ أبي حنيفَةَ موافِقٌ لمَذهَبِ الشَّيخِ الثاني، وإنْ جاءَ الشَّيخُ الثاني بعدَ أبي حنيفَةَ بمُدَّةٍ.

ومذهَبُ الشَّافعيِّ مُوافِقٌ لمَذهَبِ الشَّيخِ الأَوَّلِ في بابِ الاعتقادِ، وإنْ

---

(١) وهذا ما عبَّر عنه الحافظُ ابنُ عَساكِرَ (ت. ٥٧١هـ) في وَصفِ القُرونِ السِّتَّةِ الأُولَى حيث قال في «تبيينه»: ٤١٠: «أكثرُ العلماءِ في جميعِ الأقطارِ عليه، وأئمةُ الأمصارِ في سائرِ الأعصارِ يَدْعونَ إليه، ومُنتَحِلُوه هُمُ الذين عليهم مَدارُ الأحكامِ، وإليهم يُرجَعُ في معرفةِ الحلالِ والحرامِ، وهم الذين يُفتونَ النَّاسَ في صِعابِ المسائلِ، ويَعتَمِدُ عليهم الخَلقُ في إيضاحِ المُشكِلاتِ والنَّوازِلِ، وهل مِنَ الفُقهاءِ مِنَ الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ إلَّا مُوافِقٌ له، أو مُنتَسِبٌ إليه، أو راضٍ بحَميدِ سَعيِهِ في دِينِ اللَّهِ، أو مُثنٍ بكثرَةِ العِلمِ عليه، غيرَ شِرذِمةٍ يَسيرةٍ تُضمِرُ التَّشبيهَ، وتُعادِي كُلَّ مُوحِّدٍ يَعتقدُ التَّنزيهَ، وتضاهي أقوالَ أهلِ الاعتزالِ في ذَمِّه، وتُباهي بإظهارِ جَهلِها بقُدرةِ سَعَةِ عِلمِه».

(٢) في «روح البيان»: ٧/ ٣٦.

جاءَ بعدَ الشَّافعيِّ بمُدَّةٍ. . . والتِزامُ مَذهبٍ مِنَ المَذاهِبِ الحَقَّةِ لازِمٌ».

ويقولُ عبدُ الباقي المواهبيُّ الحنبليُّ(١) (ت. ١٠٧١هـ): «طَوائِفُ أهْلِ السُّنَّةِ ثَلاثَةٌ: أشاعِرَةٌ، وحنابِلَةٌ، وماتريديَّةٌ».

ويقولُ محمدُ بنُ أحمدَ السَّفَّارينيُّ الحَنبليُّ(٢) (ت. ١١٨٨هـ): «وأهلُ السُّنَّةِ ثلاثةُ فِرَقٍ: الأثَريَّةُ وإمامُهم أحمدُ بنُ حَنبلٍ، والأشعريَّةُ وإمامُهُم أبو الحسنِ الأشعريُّ، والماتُريديَّةُ وإمامُهم أبو منصورٍ الماتُريديُّ».

ويأتي محمَّدُ مُرتَضى الزَّبيديُّ(٣) (ت. ١٢٠٥هـ) فيُقَرِّرُ: «لِيُعْلَمْ أنَّ كُلًّا مِنَ الإمامَينِ أبي الحسنِ وأبي منصورٍ رضي اللَّه عنهما وجَزاهُما عن الإسلامِ خَيرًا - لم يُبْدِعا مِن عندِهما رأيًا، ولم يَشْتَقَّا مَذهبًا، إنَّما هما مُقرِّرانِ لمَذاهِبِ السَّلَفِ، مُناضِلانِ عمَّا كانت عليه أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ؛ فأَحَدُهما: قامَ بنُصرَةِ نُصوصِ مَذهَبِ الشَّافعيِّ وما دَلَّت عليه.

والثاني: قامَ بنُصرَةِ نُصوصِ مَذهَبِ أبي حَنِيفةَ وما دَلَّت عليه، وناظَرَ كُلٌّ منهما ذَوي البِدَعِ والضَّلالاتِ حتَّى انقطَعُوا ووَلَّوا مُنهزِمِين، وهذا في الحقيقَةِ هو أَصلُ الجِهادِ الحَقيقيِّ الَّذي تَقَدَّمَتِ الإشارَةُ إليه، فالانتسابُ إليهما إنَّما هو باعتبارِ أنَّ كُلًّا مِنهما عَقَدَ عَلَى طريقِ السَّلَفِ نِطاقًا، وتَمَسَّكَ وأقامَ الحُجَجَ والبَراهِينَ عليه، فصارَ المُقتَدِي به في تلك المسائلِ والدَّلائلِ يُسَمَّى أشعريًّا وماتُريديًّا».

ويقولُ مُرتَضَى الزَّبِيدِيُّ الحنفيُّ أيضًا(٤): «والمُرادُ بأهلِ السُّنَّةِ هم أهلُ الفِرَقِ الأربعَةِ: المُحَدِّثون والصُّوفيَّةُ والأشاعِرةُ والماتُريديَّةُ».

---

(١) في «العَين والأثَر في عقائدِ أهلِ الأثرِ»: ٥٣.
(٢) في «لوامع الأنوارِ البهيَّةِ»: ١/ ٧٣.
(٣) في «إتحاف السَّادَةِ المتَّقينَ»: ٢/ ٦.
(٤) في «إتحاف السَّادَةِ المتَّقينَ»: ٢/ ٨٦.

ويقولُ ابنُ عَجيبَةَ[١] (ت. ١٢٢٤هـ): «أمَّا أهلُ السُّنَّةِ فهُمُ الأشاعِرَةُ ومَن تَبِعَهم في اعتقادِهِمُ الصَّحيح، كما هو مُقرَّرٌ في كُتُبِ أهلِ السُّنَّةِ».

أمَّا العَلَّامَةُ ابنُ عابدين[٢] (ت. ١٢٥٢هـ) فيقولُ: «أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ وهُمُ الأشاعِرَةُ والماتريديَّةُ، وهم متوافِقون إلَّا في مسائِلَ يَسيرَةٍ، رجَعَها بعضُهم إلى الخِلافِ اللَّفظيِّ، كما بُيِّنَ في مَحَلِّه»[٣].

ثُمَّ يقولُ العلَّامةُ محمدُ بنُ زاهِدٍ الكوثريُّ (ت. ١٣٧١هـ- ١٩٥٢م) في مقدِّمَتِه على كِتابِ «تَبيين كَذِبِ المُفتَرِي» لابنِ عساكِرَ[٤]: «غارَ الإمامُ أبو الحسنِ الأشعريُّ على ما حَلَّ بالمسلِمِينَ مِن ضُروبِ النَّكالِ، وقامَ لنُصرةِ السُّنَّةِ وقَمعِ البِدعَةِ... حتَّى وفَّقَهُ اللَّهُ لجَمعِ كَلِمةِ المسلِمِينَ، وتَوحيدِ صُفوفِهم، وقَمعِ المُعانِدِينَ، وكَسْرِ تَطَرُّفِهم، وتوارَدَت عليه المسائلُ مِن أقطارِ العالَمِ؛ فأجابَ عنها... ومَلَأَ العالَمَ بكُتُبِه وكُتُبِ أصحابِه في السُّنَّةِ والرَّدِّ على

(١) في «البحر المديد»: ٦٠٧.

(٢) في «ردّ المحتارِ على الدُّرِّ المُختارِ»: ١/ ٤٩.

(٣) وكان بوُدِّي أن أستَرسِلَ في نقلِ شهاداتِ عُلماءِ الأُمَّةِ في صحةِ اعتقادِ هذه الطائفةِ المنصورةِ، إلَّا أنَّ الأمرَ اتَّسع فأمسكتُ القَلَمَ كما أمسَكَ مِن قَبْلِي الحافِظُ ابنُ عساكِرَ في «تبيينِه»: ٣٣٠، ٣٣١، عندما قال: «لولا خوفي مِنَ الإملالِ للإسهابِ، وإيثارِي الاختصارَ لهذا الكِتابِ، لتتبَّعتُ ذِكرَ جميعِ الأصحابِ، وأطنَبتُ في مَدحِهم غايةَ الإطنابِ، وكنتُ أكونُ -بعدَ بذلِ الجُهدِ فيه- مُقصِّرًا، ومن تقصيري بالإخلالِ بذِكرِ كثيرٍ منهم مُعتذِرًا، فكما لا يُمكنُني إحصاءُ نجومِ السَّماءِ، كذلك لا أتمكَّنُ مِن استقصاءِ ذِكرِ جميعِ العُلماءِ مع تَقادُمِ الأزمانِ والأعصارِ، وكثرةِ المُشتهِرينَ في البُلدانِ والأمصارِ، وانتشارِهم في الأقطارِ والآفاقِ، مِنَ المَغربِ والشَّامِ وخُرَاسانَ والعِراقِ».

ومِنَ الطَّريفِ ألَّا يَرضَى التَّاجُ السُّبكيُّ (ت. ٧٧١هـ) في «طبقات الشَّافعيَّةِ الكُبرَى»: ٣/ ٣٧٢، بهذا الاختصارِ فيعلِّقُ عليه قائلًا: «لقد أهملَ على سَعَةِ حِفظِه مِنَ الأعيانِ كثيرًا، وتَرَكَ ذِكرَ أقوامٍ كان ينبغي -حيث ذَكَرَ هؤلاء- أن يُشمِّرَ عن ساعدِ الاجتهادِ في ذِكرِهِم تَشمِيرًا، لكنَّه استوعبَ الأَوْلَى أو كاد، واستغرقَ فلم يَفُتْهُ إلَّا بعضُ الآحادِ».

(٤) صفحات: ١٥ - ١٩، بتصرف.

أصنافِ المُبتدِعةِ والمَلاحِدةِ وأهلِ الكِتابِ، وتفرَّقَ أصحابُه في بلادِ العِراقِ وخُراسانَ والشَّامِ وبلادِ المَغربِ، ومضَى لسَبيلِه.

وبعدَ وفاتِه بيسيرٍ استعادَ المعتزِلةُ بعضَ قُوَّتِهم في عهدِ بني بُوَيه، لكنَّ الإمامَ ناصِرَ السُّنَّةِ أبا بكرِ بنَ الباقلَّانيِّ قامَ في وَجهِهم وقَمَعَهم بحُجَجِه، ودانَت للسُّنَّةِ على الطَّريقَةِ الأشعريَّةِ أهلُ البَسيطَةِ إلى أقصَى بِلادِ أفريقيا . . . والأشعريَّةُ هُمُ العَدلُ الوسَطُ بينَ المُعتزلَةِ والحشْويَّةِ، لا ابتعَدُوا عنِ النَّقلِ كما فعَلَ المعتزلةُ، ولا عنِ العَقلِ كعادةِ الحشْويَّةِ، وَرِثُوا خيرَ مَن تقدَّمَهم، وهَجَرُوا باطِلَ كُلِّ فِرقةٍ، حافَظُوا على ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ وأصحابُه، ومَلَأوا الأرضَ عِلمًا».

* * *

هذا هو المفهومُ الواسِعُ الشَّامِلُ لمُصطَلَحِ «أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» الذي عاشَ المسلِمُون في ظِلالِه إخوةً لأكثرَ مِن أَلفِ عامٍ، عاشَ الجميعُ فيها في وَحدَةٍ جامعةٍ استوعَبَتِ التَّعدُّدَ والاختلافَ المحمودَ، ونبَذَتِ الفُرقةَ والخِلافَ المذمومَ. وتمكَّنَ المسلمون تحتَ رايةِ هذا المَذهبِ مِن صُنعِ حضارَةٍ لم تُعرَفْ لغَيرِهم. وذلك قبلَ أنْ تظهرَ على الساحةِ مذاهبُ متشدِّدةٌ في التقيُّدِ بظواهرِ النصوصِ، حوَّلَت الخِلافَ المَشروعَ بينَ المسلمين إلى مذاهِبَ وطرائِقَ في التَّشَدُّدِ والتَّطَرُّفِ والتَّكفيرِ وسَفكِ الدِّماءِ.

ولكن مَن هو الأشعريُّ الذي لُقِّبَ بأنَّه إمامُ أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ؟ وما هو مَذهبُه؟ ولماذا رضِيَته الأُمَّةُ إمامًا لها في عقيدتِها ولا تزالُ ترضاه حتَّى يومِ النَّاسِ هذا؟ وذلك رُغمَ مُحاولاتِ تشويهِه وتنفيرِ النَّاسِ مِنه ومِن مَذهَبِه،

ومُحاولاتِ تبديعِه وتفسيقِه، وتبديعِ الأشاعرةِ وتفسيقِهم، ورُبَّما إخراجِهم مِنَ المِلَّةِ؟[(١)].

والإجابةُ على هذه الأسئلةِ إجابَةً وافيةً لا يحتمِلُها هذا المختصَرُ، لكن يكفي أنْ نُبَيِّنَ في عباراتٍ قليلةٍ أنَّ الإمامَ الأشعريَّ وُلِدَ بالبصرةِ سنةَ ٢٦٠هـ، وتُوفِّيَ ببغدادَ سنةَ: ٣٢٤هـ في أرجَحِ الأقوالِ، وقد نشَأَ في بيئةٍ فكريَّةٍ ومذهبيَّةٍ شديدةِ التَّنافُرِ والاضطرابِ، تُشبِهُ كثيرًا ما تمُرُّ به الأُمَّةُ اليومَ مِن بيئةٍ تصطرِعُ فيها منازِعُ التَّكفيرِ؛ نتيجةَ الصِّراعِ الطَّائفيِّ، والمَذْهَبيِّ، فكانَ المُعتزلةُ على عهدِ الأشعريِّ يَتَشَدَّدُونَ في التَّمَسُّكِ بالمَنزَعِ العَقليِّ، وكانَ غُلاةُ الحنابلةِ يتعصَّبونَ لمنهجِهم في الوقوفِ عندَ ظَواهِرِ النُّصوصِ ومَنْعِ تَأويلِها تأويلًا يَقبَلُه العَقلُ ويحتَمِلُه النَّصُّ، وقد وصَلَ أمرُ النِّزاعِ بينَ المَذهبَينِ إلى استِعداءِ السُّلطاتِ، بل استدعائِها لضَربِ العُلَماءِ وجَلْدِهم وسَجْنِهم في بعضِ الأحيانِ[(٢)].

في هذا الجَوِّ نشَأَ الإمامُ الأشعريُّ وتَرَبَّى في مدرسةِ الاعتزالِ، وتشرَّبَ مَذهبَهم، حتَّى صارَ مِن أكبرِ نُظَّارِ هذا المَذهبِ والمُنافِحين عنه، لكنَّه لَمْ يَلْبَثْ

---

(١) قد وفَّقَنا اللَّهُ تعالى إلى طبعِ مُجلَّداتٍ أربعةٍ بعُنوانِ: «الإمام أبو الحسنِ الأشعريُّ إمامُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ: نحوَ وسطيَّةٍ إسلاميَّةٍ جامعةٍ» ضمَّت أبحاثَ مؤتمَرِنا العالميِّ الذي عُقِدَ بالأزهرِ الشَّريفِ في الفترة من ٢٤ - ٢٧ جُمادَى الأُولَى سنة ١٤٣١هـ، ونشر بدار القدس العربي بالقاهرة.

(٢) انظر: «العِبَر في خَبَرِ مَن غَبَرَ»: ٣/ ٢٧١، و«سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبيِّ: ١٩/ ٤٢٥، و«الوافي بالوَفَياتِ» للصَّفَدِي: ١٨/ ٢٠٠، و«مِرآة الجِنانِ وعِبرَة اليَقظانِ» لليافعيِّ: ٣/ ٧٥، و«طبقات الشافعيَّةِ الكُبرَى» للسُّبْكي: ٤/ ٢٣٤، و«البداية والنِّهاية»، لابن كثير: ١٦/ ٥٩.

ومِن وِجْهَةِ نَظَرِ الحَنابِلَةِ؛ انظر: «المُنتَظِم في تاريخ المُلوكِ والأُمَم» لابن الجوزيِّ: ٨/ ٣٠٥، و«ذيل طبقاتِ الحنابِلَة» لابن رجب: ١/ ٣٩.

أنْ خرَج فجأةً ليُعلِنَ علَى النَّاسِ أنَّ أدلَّةَ المَذاهبِ قد تكافَأت لدَيه، وأنَّه يتبرَّأُ مِن مَذهبِ الاعتزالِ وينسلِخُ مِنه، ويعقِدُ العزمَ علَى التَّفتِيشِ عن مذهبِ الصحابة والتابعين، وتحقيقِه وتحريرِه وإعلانِه علَى النَّاسِ والدِّفاعِ عنه، مع التَّصدِّي للمذاهبِ الأُخرَى التي تنحرِفُ عنه يمينًا أو يسارًا؛ كالمُعتزلَةِ والمُجسِّمةِ (غلاة الحنابلة) والجَبْرِيَّةِ والخوارجِ والمُرجِئةِ وما جَرَى مَجراهُم.

وقد نبَّأَتنا أخبارُ التاريخِ بما نزَل بالإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ مِن جَلْدٍ وضَربٍ بالسِّياطِ في عهدِ المأمونِ لأنَّه خالَفَ المعتزِلَةَ، ولم يؤمِنْ بمذهبِهم الذي يقرِّرُ أنَّ القُرآنَ مخلوقٌ، وهو ما عُرِفَ تاريخيًّا «بمِحنَةِ خَلْقِ القُرآنِ». وفي المقابلِ كان هناك ما يُسمَّى في التاريخِ بفِتنَةِ «الحنابِلةِ» الذين تسلَّطُوا على الأشاعِرةِ وأذاقُوهمُ العَذابَ ألوانًا لأنَّهم لا يؤمنون بالمَقولاتِ المُتَشَدِّدَةِ ولا بالغُلُوِّ المذهبيِّ الذي كان يدعو إليه هؤلاء المتطرفون وهو ما عُرِفَ تاريخيًّا بفِتنَةِ الحنابِلةِ[1].

ولم يلبَثِ الإمامُ الأشعريُّ أنْ أعلَنَ عن مذهَبِه هذا الذي جاءَ مَذهَبًا وَسَطًا بينَ مَقالاتِ الفِرَقِ كُلِّها، بعدَ أن استخلَصَه مِن مُحْكَماتِ القُرآنِ والحديثِ وأقوالِ أئمَّةِ السَّلَفِ وعُلمائِهم. كما سَبَقَتِ الإشارَةُ إلى ذلك.

والجديدُ في هذا المَذهَبِ هو أنه مَنهجٌ توفيقيٌّ تَصالُحِيٌّ بينَ أمرَيْنِ كثيرًا ما يَبْدُوانِ وكأنَّهما طَرَفانِ مُتعارِضانِ، أَعنِي بِهما: النَّقلَ والعقلَ، أو: إثباتَ مسائلِ العقيدةِ بالأدلَّةِ العقليَّةِ والبراهينِ المَنطِقيَّةِ؛ إلى جوارِ الأَدِلَّةِ النَّقليَّةِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ.

(١) انظر: «الإسلام الحنبلي» لجورج مقدسي: ٣٠ وما بعدها، و«مسألة خلق القرآن» لعبد الفتاح أبو غدة: ١٠ وما بعدها، و«العامة في بغداد» لفهمي سعد: ٤٦٩ وما بعدها.

لم يقتصِرْ مَنهَجُ الإمامِ أبي الحسنِ الأشعريِّ في إثباتِ العَقائدِ عَلَى أَدِلَّةِ النَّقلِ، والتَّشَبُّثِ بظواهِرِها حتَّى لو تعارَضَت مع أوائلِ العُقولِ وبَدائهِ الأذهانِ، كما هو مَذهبُ الجامدينَ علَى النُّصوصِ والواقفينَ عندَ ظواهرِ الألفاظِ وحُروفِها. وعلى الجانبِ الآخَرِ لم يُفرِطِ الأشعريُّ في التَّأويلاتِ الذِّهنيَّةِ العقليَّةِ، أوْ في إخراجِ النَّصِّ مِن سِياقِه المُقدَّسِ إلى تحكُّماتِ العُقُولِ التي لا تنبنِي علَى النَّظَرِ السَّليمِ والبُرهَانِ السَّديدِ، كما هو الحالُ عندَ المُعتزِلةِ وغيرِهم.

وهذه الخَصِيصةُ التي تميَّزَ بها المَذهَبُ الأشعريُّ، وأعني بها: الاعتدالَ بينَ الإفراطِ والتَّفريطِ، أو المَزجَ بينَ الإيمانِ بالنَّقلِ واحترامِ العقلِ- لم تكُنْ بِدعةً استَحدَثَها الأشعريُّ بداعِيَةِ الهَوى أو التَّطلُّعِ إلى الرِّيادَةِ والظُّهورِ، وإنَّما نَسَجَ فيها علَى مِنوَال القرآنِ الكريمِ الذي تفيضُ نصوصُه المُقدَّسةُ بهذينِ الأصلَينِ اللَّذينِ تأسَّسَ علَيهما بِناءُ المَذهبِ الأشعريِّ، وهما:

١ - التوسُّطُ واليُسرُ ورفعُ الحرَجِ.

٢ - ومنزلةُ العقلِ ورِفعةُ شأنِه، بعد أن تكرَّرَ بلفظِه ومعناه في القرآنِ الكريمِ أكثرَ مِن «١٢٠ مرةً»، وكان التقريبُ أو المصالحةُ بينَ الاعتقادِ مِن جانبٍ والعقلِ الصَّريحِ من جانبٍ آخرَ هو الضَّامِنُ لطُمأنينةِ المؤمنِ وثَباتِه علَى إيمانِه. إذ مِن أعسَرِ العُسرِ أن يعتقِدَ الإنسانُ عقيدةً ما ثُمَّ يَحجُرَ علَى عقلِه أن ينظُرَ فيها؛ مخافةَ أن تتزَعزَعَ أو تتبَدَّدَ وتصبِحَ أثرًا بعدَ عينٍ إذا ما حاكَمَتْها بَدائِهُ العقولِ والأنظارِ.

وبهذه الخاصَّةِ استطاعَ مذهبُ الأشعريِّ، الذي اشتهر باسم «مذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ» أن يوفِّرَ للأُمَّةِ الإسلاميَّةِ استقرارَ العقلِ وهُدوءَ النَّفسِ، وأن يُزيلَ التَّعارُضَ بينَ كلِّ الثُّنائيَّاتِ المتشابِهَةِ التي تبدُو -في

ظاهِرِها- مُتناقِضةَ الأطرافِ، والتي كانت -ولا تزال- سببًا رئيسًا في الفِتنِ المذهبية، وما تؤدي إليه من تنازع وتكفير ودماء.

وممَّا تجدُرُ الإشارةُ إليه هو أنَّ مذهبَ «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» -كما صاغَه الأشعريُّ والأشاعِرَةُ مِن بعدِه- لم يكُنْ حارِسًا أمينًا فقَط علَى وَحدَةِ المُسلمينَ علَى مَدَى ألفِ عامٍ أو يَزِيدُ، ولم يكُنْ حاميًا لثقافَتِهم الدِّينيَّةِ والفكريَّةِ فحَسْبُ، بل كانَ باعِثًا لحضارتِهم الماديَّةِ والعِلميَّةِ في شتَّى الميادينِ.

وقد تنبَّهَ الأستاذُ أبو منصورٍ البغداديُّ -في لَفتَةٍ غايةٍ في الذَّكاءِ- إلى الرَّبطِ التَّاريخيِّ بينَ التَّقدُّمِ المدنيِّ والعُمرانيِّ، وبينَ الاستقرارِ العقليِّ والرُّوحيِّ عندَ المسلمينَ، وكيفَ أنَّ هذا المذهبَ كانَ عُنصُرَ أمانٍ وسَلامٍ وتَعايُشٍ مُشترَكٍ بينَ المُجتمعاتِ الإسلاميَّةِ، وأنَّ مؤلَّفاتِ أهلِ السُّنَّةِ في الدِّينِ والدُّنيا ظَلَّت -فيما يقولُ عبدُ القاهرِ البغداديُّ- مبعَثَ فَخرٍ خَالِدٍ مَدَى الدَّهرِ للأُمَّةِ المُحمَّديَّةِ، وأنَّ آثارَهم العُمرانيَّةَ في بلادِ الإسلامِ مَشهورةٌ ماثِلةٌ أمامَ الأنظارِ، خالدةٌ في بُطونِ التَّوارِيخِ بحيثُ لا يَلحَقُهم في ذلك لاحِقٌ؛ كالمساجِدِ، والمَدارِسِ، والقُصورِ، والرِّباطاتِ، والمصانعِ، والمُستشفياتِ، وسائرِ المَباني المُؤسَّسَةِ في بلادِ السُّنَّةِ، ثُمَّ قالَ: «وليسَ لسِوَى أهلِ السُّنَّةِ عَمَلٌ يُذكَرُ في ذلك، وكلُّ ما في بلادِ الحَرَمينِ وسائرِ الحَواضِرِ مِن شَواهقِ الآثارِ - فمِن عمَلِ أهلِ السُّنَّةِ»[1].

ولا ينبَغِي أن يَمُرَّ هذا النَّصُّ دُونَ الانتباهِ إلى الدرس الذي يتضَمَّنُه؛ وهو أنَّ «أَهْلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» مِنَ الأَشاعِرَةِ والماتريديَّةِ وغيرِهم هم من بعثوا النَّهضةَ المادِّيَّةَ والعِلميَّةَ في تاريخِ المسلمِينَ، وأنَّهم وَحْدَهم دُونَ غيرِهم مِن

(١) «أصولُ الدِّينِ»: ٢٢٢.

سائرِ الفِرَقِ -مِنَ المعتزِلَةِ والمُشَبِّهَةِ والمُجَسِّمَةِ وغيرِهم- مَن شَيَّدَ شَواهِقَ الآثارِ في الجَزيرةِ العربيَّةِ وسائرِ الحَواضِرِ، إذْ ما كان لهم أن يتمَكَّنُوا مِن صُنعِ هذه الحَضارَةِ لو أنَّهم انشغلوا في حروبٍ مذهبيَّةٍ، أشبهَ بطواحينِ الهواءِ وجدلِ البيزنطيين، وراحُوا يَستَنزِفُون طاقاتِهم، ويُهْدِرُونَ أوقاتَهم، ويُفنُونَ أَعمارَ أتباعِهم وتلاميذِهم في شَغْلِ المجتمعِ الإسلاميِّ بخِلافاتٍ مَذهَبيَّةٍ وصِراعاتٍ عَقَدِيَّةٍ فارِغَةِ المُحتَوَى والمَضمُونِ، سُرْعانَ ما تتحَوَّلُ إلى حُروبٍ دَمويَّةٍ تُسْفَكُ فيها الدِّماءُ على المَذهَبِ والطَّائفَةِ.

وأَمرٌ معلومٌ أنَّ النَّهضَةَ أيًّا كان تَوجُّهُها لا يَتَأَتَّى لها أن تَنشَأَ -فضلًا عن أنْ تَزدَهِرَ- إلَّا في أجواءِ الاستقرارِ الفكريِّ، وفي ظلالِ السِّلمِ المُجتمعيِّ، بل السَّلامِ العالميِّ والتَّعاوُنِ الدَّوليِّ، وغير ذلك ممَّا يُعدُّ شرطًا ضروريًّا في صِناعَةِ الحضارَةِ وتحقيقِ التَّقَدُّمِ وتَرقيَةِ الشُّعوبِ ورَخائِها.. والدَّرسُ المُستفادُ مِن هذا النَّصِّ العَميقِ في مَغزاهُ ودَلالَتِه هو أنَّ الإبداعَ الذي هو وسيلةُ التحضُّرِ يستحيلُ تحقيقُه في ظلِّ انغلاقِ العقلِ، وأزماتِ الفِكرِ والفهمِ الصحيحِ، ومَن يرومُ الإبداعَ في رَهَقِ هذه الظُّلَمِ، فهو كمَن يرومُ اجتماعَ النقائضِ التي لا يمكِنُ اجتماعُها لا في مجتمعٍ مسلمٍ ولا غيرِ مسلمٍ.

أمَّا أهمُّ خصائصِ هذا المذهبِ، الذي نفتقِدُه اليومَ افتقادَ البَدْرِ في الليلةِ الظلماءِ، فيُمكِنُ إجمالُها فيما يَلِي:

أوَّلًا: ليسَ المَذهَبُ الأَشعرِيُّ -الذي هو مذهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ- مَذْهَبًا جديدًا، وإنَّما هو مذهبٌ مُستَقًى -أصولًا وفروعًا- مِن عقائدِ السَّلفِ، ولكن بمنهجٍ جديدٍ، يكشِفُ عن الاتساقِ الكامِنِ -في الواقعِ ونفسِ الأمرِ- بينَ النَّقلِ والعقلِ، هذا الاتِّساقُ الذي عجَزَ عن اكتشافِه المُتحَجِّرونَ في قِراءةِ النُّصوصِ، والوقَّافُون عِندَ ظواهرِها مِمَّن ثَقُلَ علَيهم النَّظَرُ العقليُّ، مِن

غُلاةُ العَقليِّينَ والرُّوحيِّينَ الذين غامَروا بقُدسيَّةِ النَّصِّ وتَعالِيه وقدرته على تَسديدِ العَقلِ وتَصويبِ أخطائِه.

يقولُ الإمامُ تاجُ الدِّينِ السُّبكيُّ: «اعلَمْ أنَّ الأشعريَّ لم يُبدِعْ رأيًا ولم يُنشِئْ مَذهبًا، وإنَّما هو مُقرِّرٌ لمذاهبِ السَّلفِ، مُناضِلٌ عمَّا كانَت علَيه صحابةُ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فالانتسابُ إليه إنَّما هو باعتبارِ أنَّه عقَدَ على طريقِ السَّلفِ نِطاقًا وتمسَّك به، وأقامَ الحُجَجَ والبراهينَ علَيه، فصارَ المُقتدِي به السَّالكُ في الدَّلائلِ يُسمَّى أشعريًّا»(١).

ثانيًا: أنَّه مَذهَبُ السَّلامِ بينَ النَّاسِ جميعًا؛ لأنَّه المَذهَبُ الوحيدُ الذي يجعَلُ مِن وحدةِ الأُمَّةِ أصلًا، ولا يجترِئُ علَى إقصاءِ مسلِمٍ واحدٍ مِن أُمَّةِ الإسلام، ولا يخلَعُ عنه رِبقَةَ الإسلامِ ما دامَ يؤمِنُ باللَّهِ وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخرِ، ولا يُكفِّرُ أحدًا مِن أهْلِ القِبلةِ، وقد روَى ابنُ عساكرَ أنَّ الأشعريَّ حينَ حضَرَته الوفاةُ في بغدادَ قالَ لأحَدِ تلاميذِه: «اشهَدْ عليَّ أني لا أُكفِّرُ أحدًا مِن أهلِ هذه القِبلَةِ؛ لأنَّ الكُلَّ يُشيرونَ إلى مَعبودٍ واحدٍ، وإنَّما هذا كلُّه اختلافُ العباراتِ»(٢).

ومِمَّا يدلُّ على نفورِه الشَّديدِ -رحمه اللَّه!- مِن نزَعَاتِ التَّكفِيرِ التي ضَرَبَتِ استقرارَ مُجتمعاتِنا -اليومَ- في مَقتلٍ، وإدراكِه المُبكِّر لما تتأدَّى إليه هذه النَّزعةُ المُغلَقةُ مِن استحلالٍ للدِّماءِ والأموالِ والأعراضِ -أنَّه ألَّف كتابًا يجمَعُ الفِرَقَ الإسلاميَّةَ، بعنوان: «**كتاب مَقالاتِ الإسلامِيِّينَ واختلافِ المُصلِّينَ**»(٣) عَرَضَ فيه لعَشَرَةِ أصنافٍ مِن فِرَقِ المُسلمِينَ(٤) -بما فيهم

(١) «طبقاتُ الشَّافعيَّةِ الكبرى»: ٣/ ٣٦٥.
(٢) «تبيينُ كذِبِ المُفتري»: ١٤٩.
(٣) صفحة: ٥ (طبعة ريتر).
(٤) وهم -كما ذَكَرَ الإمامُ الأشعريُّ-: الشِّيعَةُ، والخَوارِجُ، والمُرجئَةُ، والمُعتزِلَةُ، والجَهْمِيَّةُ، والضِّراريَّةُ، والحُسَيْنِيَّةُ، والبَكْرِيَّةُ، وأصحابُ الحَديثِ، والكُلَّابيَّةُ: ١/ ٦٥ (طبعة: القاهرة).

الخوارِج- وبَيَّنَ أنَّ الإسلامَ يسَعُهم جميعًا؛ لأنَّهم مِنَ المُصَلِّينَ، رغمَ ما بينَهم مِن اختلافٍ في بعضِ الأُصولِ وكثيرٍ مِن الفُروعِ.

والذي يَدُلُّكَ على أنَّ هذا الإمامَ يتقيَّدُ في مَذهَبِه بسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ويَقفُو أثَرَه، ويَنْسِجُ على خُيوطِ مِنوالِه الشَّريفِ في سِياسَةِ الأُمَّةِ -ما رَواه الإمامُ البُخارِيُّ في صَحيحِه[1] مِن حَديثِ أنسِ بنِ مالِكٍ رضي اللَّه عنه قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ صَلَّى صَلاتَنا، واسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنا، وأَكَلَ ذَبِيحَتَنا، فذلك المُسْلِمُ الذي له ذِمَّةُ اللَّهِ وذِمَّةُ رَسُولِه، فلا تَخفِرُوا اللَّهَ في ذِمَّتِه»**.

وما أعرِفُ مَذهَبًا آخَرَ تَرَسَّمَ خُطَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وخُطَى صَحابَتِه والسَّلَفِ الصَّالِحِ في هذا المِفْصَلِ المِحْوَرِيِّ في وَحْدَةِ الأُمَّةِ، واحْتاطَ لَه، وعَرَفَ له شَأنَه وخَطَرَه مِثْلَ المَذهَبِ الأَشْعَرِيِّ..

وحَسْبُكَ أنْ تُلْقِيَ نَظْرَةً لأسبابِ الوَهْنِ الذي حاقَ بِنا أَخيرًا، وأَطْمَعَ فِينا الأُمَمَ الَّتي تَداعَتْ عَلَينا - لِتَعْلَمَ أنَّ التَّكفِيرَ عَلَى المَذهَبِ بينَ السُّنَّةِ والسُّنَّةِ، وبينَ الشِّيعَةِ والسُّنَّةِ، وبينَ الشِّيعَةِ والشِّيعَةِ - هو الوَقُودُ الذي يُبْقِي جَذْوَةَ الحُروبِ بينَ المُسلمينَ مضطرمةً، لا يَخْبُو لها أُوارٌ، ولا يُعْرَفُ متى يَنطَفِئُ لَهِيبُها الذي دمَّرَ البِلادَ والعِبادَ.

ولقَد نَبَّهَ الأَشعريُّ في الأَسْطُرِ الأُولَى في كِتابِه السابقِ إلى هذه الكارِثَةِ، وعَرَضَها في أُسلوبٍ يُشبِهُ أُسلوبَ الحَزينِ السَّاخِرِ، وبعِبارَةٍ ما أحوجَ الأُمَّةَ إليها اليومَ، بل لا مَفرَّ لها مِنها لاستعادَةِ وَحدتِها وقُوَّتِها، يقولُ الأشعريُّ: «اختلَفَ النَّاسُ بعدَ نَبِيِّهم ﷺ في أشياءَ كثيرةٍ، ضَلَّلَ فيها بعضُهم بعضًا وبرِئَ

(١) (ح٣٩١). ومعنى «فلا تخفِرُوا اللَّهَ في ذمَّتِه»: أي: فلا تنقضُوا العهدَ. انظر: «طِلبَة الطَّلبَة» للنسفي: ١٦٣.

بعضُهم مِن بعضٍ، فصارُوا فِرَقًا مُتباينينَ وأحزابًا مُتشتِّتين، إلَّا أنَّ الإسلامَ يجمَعُهم ويشتمِلُ علَيهم»[١].

وهذا الذي يحرِصُ الأشعريُّ علَى تصديرِ كتابِه به يحرِصُ تلاميذُه أيضًا مِن بعدِه علَى تقريرِه وتأكيدِه، ونكتفِي لضيقِ المقامِ بنصِّ البغداديِّ في فصلٍ مِنَ الكتابِ السَّابقِ عُنوانُه: «في بيانِ عِصمةِ اللَّهِ أهلَ السُّنَّةِ عن تكفيرِ بعضِهم بعضًا» يقولُ فيه: «أهلُ السُّنَّةِ لا يُكفِّرُ بعضُهم بعضًا، وليسَ بينَهم خِلافٌ يُوجِبُ التَّبرِّيَ والتَّكفيرَ.. واللَّهُ تعالَى يحفَظُ الحقَّ وأهلَه فلا يقَعونَ في تنابذٍ وتناقُضٍ».

ثمَّ يصِفُ حالَ الفِرَقِ الأُخرَى وكأنَّه يصِفُ حالَنا اليومَ، فيقولُ: «وليسَ فريقٌ مِن فِرَقِ المُخالفِينَ إلَّا وفيهم تكفيرُ بعضِهم لبعضٍ، وتبرِّي بعضِهم مِن بعضٍ... حتى اجتمَعَ سبعةٌ مِنهم في مجلسٍ واحدٍ فافترَقُوا عن تكفيرِ بعضِهم بعضًا»[٢].

وأنت حيث نظَرْتَ إلى تاريخِ الأشاعِرَةِ والماتريديَّةِ لا تراهم يُقصِي بعضُهم بعضًا أو يُقصُونَ الفِرَقَ الأُخرَى؛ وسببُ ذلك أنَّ دائرةَ التَّكفيرِ في المذهبِ الأشعريِّ والماتريديِّ شديدةُ الضِّيقِ، إلى أبعد مدى ممكن، وهي الخلفية العقدية الثابتة التي يستند إليها الأشاعرةُ في عِصمَةِ دِماءِ النَّاسِ -على مَدَى تاريخِهم- وحُرمةِ هَتْكِ أعراضِهم وسَبْيِ نِسائِهم وأموالِهم، وقد أدَّى انحرافُ فِرقةِ الخوارجِ قديمًا، والفِرقِ المكفِّرةِ حديثًا إلى جريمةِ التَّكفيرِ بالذَّنبِ وإراقةِ دماءِ المسلمِين واستباحةِ أموالِهم وأعراضِهم.

(١) «كتابُ مَقالاتِ الإسلاميِّينَ»: ٣٤.
(٢) «الفَرْقُ بَيْنَ الفِرَق»: ٢١٩.

ولكنَّنا لا نستطيعُ أنْ نتجاهَلَ ظُهورَ هذه المذاهبِ المتطرِّفَةِ بينَ الحينِ والحِينِ الآخَرِ، وبخاصَّةٍ في عصرِنا الحديثِ، وهي -علَى تنوُّعِها- ذاتُ صِلَةٍ فكريَّةٍ عميقَةِ الجُذورِ بتُراثِ الخَوارِجِ، ومَسلَكِ أصحابِ «مِحنَةِ خَلقِ القُرآنِ» و«فِتنةِ الحنابِلةِ»، وأنَّ المذهَبَ الأشعريَّ كان هو العاصِمَ مِن الانحرافاتِ، أو المصحِّحَ لأخطائِها وأخطارِها وتداعياتها، فبِسَبَبٍ مِن هذا المَذهبِ المُؤسَّسِ عَلَى رُوحِ الإسلامِ في إفشاءِ السَّلامِ بينَ النَّاسِ، لم يعرِفِ المسلِمون فيما بينَهم حُروبًا دينيَّةً مثلما عرَفَ تاريخَ غيرِهم مِنَ الحَروبِ الثَّلاثينيَّةِ والسَّبعينيَّةِ وغيرِها.

والذي يتَدَبَّرُ تاريخَ الفِرَقِ في القُرونِ الأُولَى لا يَعيبُه أنْ يكتشِفَ أنَّ قضيَّةَ التَّكفيرِ بالذَّنبِ كانَت هي الأفعَى التي تُطِلُّ برأسِها بينَ الحِينِ والآخَرِ مُبَشِّرَةً بالحَربِ والقَتلِ والدِّماءِ - وأَغلَبُ الظَّنِّ أنَّ الإمامَ الأشعريَّ كان يستَشعِرُ في عهدِه خطَرَ هذه القضيَّةِ على المسلِمين، ممَّا دعاه إلى ضرورَةِ فَصلِ القَولِ في قَضِيَّتَينِ أساسيَّتَينِ لو تُرِكَتا لِعَبَثِ العابِثِين وتحريفِ المتأوِّلينَ، فإنَّ الأُمَّةَ لا تَلبَثُ أن تَذرُوها الرِّياحُ وتُصبِحَ أثَرًا بعدَ عَينٍ، وأعنِي بهاتَينِ القضيَّتَينِ:

- عَلاقَةَ العَمَلِ بحقيقَةِ الإيمانِ وجَوهَرِه وماهيَّتِه.
- وعَلاقَةَ الذُّنوبِ -كبائِرَ وصغائِرَ- بالكُفرِ والخُروجِ مِنَ المِلَّةِ.

وهاتانِ المسألتانِ تَستحِقَّانِ بحثًا مستقِلًّا أرجو أنْ يُوَفِّقَني اللَّهُ تعالى لإتمامِه وتَقديمِه للنَّاسِ في أُسلوبٍ يَسْهُلُ استيعابُه والإفادَةُ منه.

هذه النَّزعَةُ الإنسانيَّةُ التي تُشَكِّلُ لُبَّ مَذهَبِ الأشاعِرةِ والماتُريديَّةِ لا تجِدُها بالوضوحِ نَفْسِه والقُوَّةِ ذاتِها، مُعْلَنَةً ولا حاكِمَةً على مفاصِلِ المَذاهِبِ الأُخرَى كما تَجِدُها عندَ الأشاعِرةِ. فالخوارِجُ والمعتزِلَةُ والشِّيعَةُ والمُتشدِّدون مِنَ الحنابلةِ قديمًا وحديثًا أمْرُهم معروفٌ في التَّساهُلِ

والتَّسَرُّعِ في الحُكمِ على جماهيرِ المسلمِين بالفِسقِ والضَّلالِ والخُروجِ مِنَ المِلَّةِ..

وقد عَلِمنا -فيما مَرَّ- شيئًا مِن تَسَلُّطِ المعتزِلَةِ على أهلِ الحَديثِ وفي مقدمتِهم الإمامِ الجليلِ: أحمدَ بنِ حنبلٍ رضي اللَّه عنه، واستِعداءِ السُّلطَةِ في عصرِهم الذَّهبيِّ على كُلِّ عالِمٍ لا يعتَنِقُ مَذهَبَهم، كما علِمنا: فِتنةَ الحَنابِلَةِ واعتداءَهم على الأشاعِرَةِ وارتكابَهم جَرائمَ الضَّربِ والمُطارِدَةِ والجُرأةِ على سَفْكِ الدِّماءِ.

وخُلاصةُ القَولِ أنَّ «أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ» هم جماهيرُ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ، وأنَّ أئمَّتَهم هم: مالكٌ والشَّافعيُّ وأبو حنيفةَ وابنُ حنبلٍ، والأشعريُّ والماتُريديُّ وتلاميذُهما ومدارسُهما، والحسنُ البَصريُّ والجُنَيدُ والمُحاسبيُّ والسَّرَّاجُ وحُجَّةُ الإسلامِ الغَزاليُّ، وأهلُ الحديثِ وفُضلاءُ الحنابلةِ وعلماؤُهم ممَّن يتمسَّكونَ بنهجِ الإمامِ أحمدَ وزُهدِه، وما عُهِدَ مِنه وعُرِفَ مِن سيرتِه مِن فِرارِه الشَّديدِ مِنَ الولوغِ في الدِّماءِ والتَّسَرُّعِ بتفسيقِ المسلمين مرَّةً وإخراجِهم مِنَ المِلَّةِ مرَّةً أُخرَى.

ومذهبُ «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» هو الذي أوصَى النبيُّ ﷺ بالاعتصامِ به والإمساكِ بطَوقِه حينَ يضطربُ أمرُ المُجتمعِ المُسلمِ وتغشاهُ الفِتَنُ وتنحرِفُ به السُّبُلُ، فقالَ: «**عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ**»[(١)].

وفي الخِتامِ أقولُ: أعلَمُ أنِّي قد توسَّعتُ في جَلْبِ نصوصٍ واقتباساتٍ ربَّما تكونُ غيرَ مُستساغَةٍ لدَى المُتخصِّصِين مِن أهلِ العِلمِ، ولكِن إنْ كنتُ قد

(١) أخرجَه التِّرمذيُّ (٢١٦٥) مِن حديثِ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه، وقالَ: «حديثٌ حسَنٌ صحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ».

أَطَلْتُ في هذه المُحاضرَةِ، فعُذرِي أنَّ الوَضعَ المُتردِّي الذي صارَت إليه الأُمَّةُ اليَومَ لَمْ يَعُدْ يَحتَمِلُ أحاديثَ المُجامَلاتِ والإشاراتِ ومُراعاةِ الخواطرِ، وأنَّه لم يَعُد أمامَنا إلَّا هدَفٌ واحدٌ هو لمُّ شملِ الأُمَّةِ، وغسلُ العُقولِ والقُلوبِ مِنَ العقائدِ السَّوداءِ، والتَّأويلاتِ التي يُنكِرُها الإسلامُ وشريعَتُه أشَدَّ الإنكارِ، وعلَينا أن نعلَمَ عِلمَ اليقينِ أنَّه لا يصلُحُ آخِرُ هذه الأُمَّةِ إلَّا بما صلُحَ به أوَّلُها، وما صلُحَ به أوَّلُها هو مَذهبُ «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» بيُسرِه وسماحَتِه ورُوحانيَّتِه ومظلَّتِه الواسعةِ الشَّاملةِ.

وإذا كانَ لي مِن كَلِمَةٍ أَختِمُ بها هذه المُحاضَرَةَ فهي: ندائي لكُلِّ مَن تنكَّبوا هَدْيَ قُرآنِهم وسُنَّةَ نَبِيِّهم، وتفرَّقَت بهم السُّبُلُ عن صِراطِها المُستقيمِ أن يثوبُوا إلى رُشدِهم، ويُحَكِّمُوا ضمائرَهم فيما يقترفُونَه مِن آثامٍ وجرائمَ، وأن يعلَمُوا أنَّ هذه التَّأويلاتِ الفاسدةَ لن تُغنِيَ عنهم مِنَ اللَّهِ شيئًا يومَ القيامةِ، وأنَّهم سيُسألون -لا محالةَ- عن هذه الدِّماءِ، وهذا الإفسادِ في الأرضِ، وأنَّ بابَ التَّوبةِ مَفتوحٌ لمَن رجَعَ وتابَ وأنابَ، وعليهم أن يُعيدُوا قراءةَ القُرآنِ بفَهمٍ صحيحٍ وقَلبٍ سليمٍ، ويتدبَّروا آياتِه، ويستضيئوا بقبَسٍ مِن نورِ نبيِّهم ﷺ الذي بعَثَه اللَّهُ رحمةً للعالَمينَ كلِّ العالَمينَ.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧، ١٨]

صدق اللَّه العظيم.

* * *